الحياة العباسية

في صدر الدولة العباسية

— ١ —

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ — ٣٣٤هـ) الى عصرين : العصر العباسي الأول ، والعصر العباسي الثاني [١]

وإذا كان العصر العباسي الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه . فان العصر الثاني (٢٣٢[٢] — ٣٣٤ هـ) يتسم بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء ، وفساد شؤون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حداً كبيراً في هذا العصر

أول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفي عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة بجانب الفرس والعرب [٣] وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لحمايتهم ، ولكنهم كانوا معزولين عن شئون الدولة وسياستها لميل المأمون الى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم « ماردة » تركية من السغد ، فنشأ وسط كثير من طبائع الأتراك مع الميل اليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل

---

(١) يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين . ص ٩ ج ، تاريخ آداب اللغة لزيدان ، وه ج ٤ التمدن الاسلامي ، ٢٠ تاريخ الادب العربي للزيات . ويجعل بعض الباحثين العصرين عصراً واحداً (٣ آداب اللغة في العصر العباسي الاسكندري ١٦٤ تاريخ الادب العربي في العصر العباسي لمحمود مصطفى ، ١٦٥ جـ ١ نفس المرجع) ويرى بعض الكتاب أن ابتداءه الفعلي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ

(٢) ١٦٧ جـ ٤ التمدن الاسلامي

الأمين [1] فصار يخافهم على نفسه وضاعت الثقة بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم ، حتى اجتمع لديه بضعة آلاف من قبل أن تفضي اليه الخلافة [2]

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الجند الفارسي مع اخيه العباس ، وبايعوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند [3] ، فكان ذلك أيضاً مما زاد من تقريب المعتصم للترك وايثاره لهم .

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، احترامهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر الفاً [4] ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا الثمانين ألفا [5]

ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا ، على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه ، وحاضرة لملكه ، منذ عام ٢٢١ [6] هـ ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة [7] وصارت من أجل الحواضر الاسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٧٩ [8] هـ

أصل الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب وتعوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات [9]

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك [10] ، الذين أخذوا يتكالبون بالفرس والعرب جميعاً ، وصعروا في قتلهم ، وموقف الافشين من أبي دلف وأصوه

---

(١) قال طاهر بن الحسين وهو فارسي :

أيسومني المأمون خطة خاسر أبو رأى بالأمس رأس محمد ؟

(١٥٧ : ١ العقد الفريد ، ولب لباب (٢٦٦ / ٢ مهذب الاغاني ، ٥٢ / آداب اللغة لزيدان ، ٣٠٥ الشعر والشعراء . (٢) ١٦٨ / ٤ التمدن الاسلامي (٣) ٣٠٤ / ١٠ الطبري

(٤) ٢٣٣ / ٢ النجوم الزاهرة (٥) ٤ العصر العباسي لسباعي بيومي

(٦) ١ / ٤ وما بعدها خروج الشعب (٧) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٨) ١٠٠ / ٤ ظهر الاسلام . (٩) ١٤٤ / ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الاسلام في دار السلام (١٠) ١٧٠ ـ ٤ التمدن

بقتله لولا أن أنقذه أمر دؤاد معروفه[1]

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم، وأشهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ، واشناس م ٢٣٠ هـ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة، لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم، حتى ان الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ اشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً[2]، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيهه بكثير من العرب[3]

ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ، سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة، لأن أمه «شجاع» خوارزمية تركية، فتم لهم ما أرادوا، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمهم، فزاد طمعهم في الدولة، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم فرق وأحزاب، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات، كثيرو الطمع في الأموال، والعبث بالأمن.

ندم المتوكل على ما فرط، وأخذ يعمل على كسح جماح الأتراك، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ هـ، وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق، لكن ذلك لم يتم له، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم، ولكنهم كانوا يحكمون تدبيراً آخر لقتل الخليفة[4]، وتقدم باغر التركي حارس المتوكل، ومعه عشرة قلبان من الأتراك، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأتراك، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد، وتحالفوا على الخليفة فقتلوه في قصره الجعفري، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان، وذلك في أواخر عام ٢٤٧ هـ[5]

وكان قتل المتوكل أول حادثة اغتيال في الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك.

وفي ذلك يقول البحتري:

أكان وفي العهد أصغر غدره فمن عجب أن ولي العهد قادره

---

(١) الأذكياء لابن الجوزي (٢١) ١٣٥ تاريخ الخلفاء (٣٠٠) ٢٠٢ جـ ١١ الطبري (٤) ٦٥ — ٦٧ جـ ٤ مروج الذهب

(٥) راجع مقتل المتوكل ومراثي الشعراء فيه في (٢٦٠ — ٢٦٤ جـ ٤ زهر الآداب) ومرثية يزيد المهلبي فيه في (٣٤١ — ٣ وما بعدها من الكامل للمبرد ٩٤ — ٩٦ جـ ٢ العقد، ٢٦٣ جـ ٤ زهر الآداب)

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حلت ذاك الداء منك مبارد

ويقول المهلبي :

لا حزن إلاّ أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت نعمان ما فقدا

ومنها : فاجعلهم على الأحرار نعمتكم حتكم السادة المذكورة الخلقا

ورأى يزيد المهلبي هذا يشبه رأي اسحاق بن ابراهيم المصعبي م ٢٣٥ هـ في الأتراك حين شكا إليه المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال (١)

ويقول علي بن الجهم :

صيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك صيدها

بني هاشم صبراً لكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة ، كانت سبباً في زيادة كراهية الرأي العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك في عهد المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ، ثم في عهد المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه في الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففي عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفي مصرعه يقول البحتري من قصيدة مدح بها المعتز بالله : (٢)

أضحى يثاء وأقربوه وحزبه وكأنهم حلم من الأحلام

طاحوا فما بكت السيوف عليهم بدموعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم ضربوه بالطبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه في الشمس حافياً ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ (٣) هـ ، ثم حبسوه وتناولوه ، وولوا مكانه المهتدي بن الواثق ، الذي لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ ، ومات بعد خلعه بأيام .

(١) راجع ٨ حـ ١١ الطبري (٢) راجع ٢٣٤-٢٣٦ ديوان البحتري (٣) ١٦٢ — ١١ طبري